المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي

للدكتور محمد عبد الرحمن
(جامعة اليرموك)

لقد فرضت الصحراء على العرب طباعا وأخلاقا مناسبة لتقاليدهم ، والزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا ، ثم صارت لهم على مر العصور جبلة وفطرة ، وصارت لهم عنوانا بين الناس ، وسجلتهم التاريخية التي اكتوت الجزيرة بنارها ردحا من الزمن ، حتى تمثل شاعرهم ما يرى حياتهم خير صورة :

يُغار علينا واترين فيُشتفى بنا ان يُسبّا او نغير على وتر

فنحمي بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي الا ونحن على شطر (١)

ونستطيع ان نزعم بأن تلك الحياة البداوية القاسية ، والحروب التي اشتعلت ، قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده ، فتناسلت وتكونت منهما من القيم والمثل تعارف عليها المجتمع وآمن بها واحترمها والتزم بها . ولكن ذلك لا يعني ان عادات اخرى وتقاليد كانت تسيء الحياة ، وتمتلئ بالظلم والفوضى والسفه لم تكن موجودة . والذي سنتناوله الاهتمام في هذه المقولة هو اللون الأول من اعراف الجاهلية وتقاليدها ، اي الجانب المشرق من تلك الحياة ، لأننا نظلم تلك الفترة من تاريخ امتنا ان نحن اغمضنا اعيننا عن هذا الجانب ، وقلنا ان العرب لم تكن لهم قيم قط ، وانهم كانوا امة تتخبط في الظلام ؛ والا فبم نفسر تلك الايات الكريمة التي تجادلهم وتحاورهم ؟ وبم نفسر دخولهم جميعا في دين الله افواجا في زمن لم يتعد احد عشر عاما ، ثم حملوه الى العالم اجمع ؟

---

(١) حماسة ابي تمام — شرح المرزوقي ٨٢٦/٢ .

ويبدو أن ذلك المجتمع ، بالرغم من تنافر قبائله وتطاحنها ، وعدم تلاحمها واحساسها بشعور الانتماء الى اصل واحد ، اتفق على امور كثيرة وتعارف عليها . وكانوا يجدون من أوقات الفراغ ، ما يجعلهم يحسون بالطمأنينة النسبية مما يجعلهم يشغلون تلك الاسواق ، ويعمرونها بالبيع والشراء والاستماع الى الخطب البليغة ، والاشعار الرائقة الرائعة ، وتبادل الخبرات ، والزواج بل حتى تبادل الاسرى .

لقد تعارفوا على اسواق تشكل في مجموعها سلسلة متصلة تبدأ من اقاصي اطراف الجزيرة في عمان وتنتهي بعكاظ حيث يذهبون الى مكة للحج الى بيت الله الحرام . وكانت اوقات افتتاح تلك الاسواق تبدأ مع انتهاء من السوق الماجور . ومن اهم تلك الاسواق : دومة الجندل (اول يوم من ربيع الاول) ، وسوق هَجَر (في شهر ربيع الآخر) ، وسوق ادم وقرى الشحر ، وسوق عدن ابين ، وسوق صنعاء ، وسوق عكاظ ؛ ويتوجهون بعد ذلك الى مكة ، فيقفون بعرفة ، ويقضون مناسك الحج ، ويرجعون الى اوطانهم (٢) . وكانت الاوقات المخصصة لتلك الاسواق تعي وهذه تعارفوا عليها ، تلك هي الاشهر الحرم (٣) التي لا قتال فيها ؛ ذلك مما آمنوا به جميعا ، يتفرغون فيها للاتصال ببعضهم في المواسم والاسواق ، ويحجون بعد ذلك الى بيت الله الحرام . وتعارفوا ايضا على قوانين تنظم علاقاتهم في اثناء التقائهم في تلك الاسواق يلتزمون بها ، من اهمها ان لا سلاح يحمل في السوق ، بل تودع الاسلحة عند رجل له منزلته ومكانته قبل الدخول الى السوق . وفي هذه الاسواق يتم تبادل الاسرى ، كما يتم حل المظالم التي تعجز القبيلة عن حلها حيث يُبتّ فيها حكام هذه الاسواق الذين يحظون بمكانة مرموقة بين القبائل .

---

(٢) سبائك الذهب (١١٩ ـ ١٢٠) .

(٣) الاشهر الحرم هي : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب .

ولا يفوتنا ان نشيد هنا بدور هذه الاسواق في بروز طبقة من الشعراء والخطباء والحكام ما زالت وسياماهم ومكانهم تتناقل بين افواه الناس الى يومنا هذا ، ودورها ايضا في خلق لغة ادبية تعارف عليها الجميع في تلك الاسواق ، وهي اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، التي تشكلت من لغات القبائل .

وهكذا وُلدت تلك الظروف من جدب الارض التي يغلب عليها الطابع الصحراوي ، وحياة التحرك للحرب او للسلم ، والاحتكاك فيما بين القبائل في السلم والحرب ، قيما ومثلا تعارف الجميع عليها ، وعملوا بها ، ثم اصبحت مُثلا يتخرون بها ، ويتفاخرون بها غيرهم .

وتقتصر هذه المقالة على اهم هذه القيم والمثل .

واول تلك الفضائل والقيم التي حرصوا عليها اشد الحرص ، وتمسكوا التمسك بها ، وذموا وهجوا التخلي عنها ، **الكرم** ، والكرم في اللغة يعني ما استفاده الانسان من خلق كريم ، او طبع عليه (٤) ، ويعني ايضا شرف في الشيء في نفسه ، او شرف في مخلوق الاخلاق (٥) ، ويُعرّف ابن الاثير الكريم بأنه الجامع لانواع الخير والشرف والفضائل (٦) ، فالكرم جماع شرف النسب والسخاء ، واتيان الفعل النبيل . وسنقتصر حديثنا على السخاء،لان الصفتين الاخريين ليس مكانهما في هذه المقالة ، واتيان الفعل النبيل يكون أعم واشمل من السخاء ، وشرف النسب مما يفاخر به كل عربي .

وكانت العرب تمتدح الكريم السخي عندما يشتد الشتاء ، ويقل الزاد ، وتضيق اليد ، يقول المسيب بن علس يادحا الشماخ بن ضرار بن مرداس :

---

(٤) جمهرة اللغة مادة (كرم) .

(٥) معجم مقاييس اللغة — ابن فارس ١٧١/٥ .

(٦) النهاية في غريب الحديث — ابن الاثير ١٦٦/٤ .

الذي كانوا يدعونه بتيار الفرات الذي يسخو ويجود في وقت الشدة والبرد ، حيث يحلّ الجميع ببيته ، وهو بهـذا العمل اجود من الخليج ، ومن هنا جاءت تسميته بتيـار الفرات :

واذا تهيجُ الريـحُ من مُرّادِها ... ثلجـًا يُنيـخُ النّيـبَ بالجُعجاع

احللتَ بيتَك بالجميع ، وبعضُهم ... متفـرق ليحـلّ بـالأوزاعِ

وانتَ أجـودُ من خليج مفعَـمٍ ... متراكـمٍ الآذي ذي دُفّـاع (٧)

ويمتدح عمرو بن شاس قومه بجودهم في اوقات المحل فيقـول :

الماسمون اذا النجـومُ خَسَرْتْ ... واحـاط بالمتوحّـد المحـلُ (٨)

يكرر المعنى ذاته في موضع اخر فيقـول :

وانّ بُنَيّنا ذو حاجة بُلَفٍ وسطنا ... مجالس ينفي فضلُ احلامها الجهلا

مصـابيحُ أيسارٌ اذا هبّـت الصّبا ... نَعفّ ونُغني عن عشيرتنا الثقلا (٩)

ويقول سلامة بن جندل التميمي في المعنى نفسه :

نحن اذا مـا ازلنا مسارحَ مُـزِعٍّ ... كان الصراخُ له قَرْعَ الظنابيبِ (١٠)

ويؤكد المعنى نفسه شاعر بني عامر بن الطفيل فيقـول :

اذا سَنة عَزّت وطـال ملوالُها ... وأقحَطَ عنها القطر واصفرّ عودُها

وجدْنـا كِرامًا لا يُحـوّل ضَيفُنا ... اذا جَفّ فوق المُنزلاتِ جليدُها (١١)

---

(٧) القصيدة رقم (١١) .

(٨) ديوانه (٤٢) .

(٩) ديوانـه (٤٨) .

(١٠) المفضليـة رقم (٢٢) .

(١١) ديوانـه (٤٦ — ٤٧) .

ويحدثنا شاعر آخر هو عمرو بن الاهتم قصة رجل نزل عليه ليلا ، فاستضافه ، ورحب به ، وقام الى بعير سمين من ابل القوم فنحره ، وظل يطعم الضيف حتى شبع ؛ ثم نام قرير العين مستدفئا من البرد الشديد ، وهو يخبرنا في نهاية القصة ان كل كريم يجب ان يتقي ذم الناس له بالقرى .

وإنـي كريم ذو عيـال تُهِمُّني ... نوائبُ يغشى رُزؤُها ومَتوقُ (١٢)

ومستنبـحٍ بعد الهدوء دعوتـه ... وقد هان من نجم الشتاء خُفُوقُ

بمالـج عِرنينًا مـن الليل باردا ... كَلِفْتُ رياحَ نومُه ويسوقُ

تألّقَ في عينٍ مـن المزن وادقٍ ... له عيدبٌ داني السحاب دفوقُ

اضفتُ فلم افحش عليه ولم اقل ... لأهلِـه : ان المكـانَ مَضيقُ

فقلت له : اهلا وسهـلا ومرحبا ... فهـذا مَسوحٌ راهـن ومَسيقُ

وقمنا الى البُرْكِ الهواجد فانتقت ... مقاصيـد كُـومٌ خلجاتٍ بُروقُ

الى ان يقـول :

شبات لـه منها وللضيف موهنًا ... شـواء سمين زاهـق وعُروقُ

وبات لـه دون الصَّبا وهي قُرَّةٌ ... لحـافٌ ومسدول الفـراء رقيقُ

وكل كريـم يتقي الذم بالقـرى ... وللخير بيـن الصالحين طريقُ

ويتذكر متمم بن نويره أخاه فيبكيه معددا خصاله :

فَسَينَـيَّ هَـلّا تبكيـان لمالـك ... اذا أُذْرِتِ الريحُ الثَّمِيمَ المرنَّما

وللشَّـرْب فابكي مالكـا ولِبُهمةٍ ... شديد نواحيـه على من تشجّعا

---

(١٢) المفضليـة رقم (٢٣) .

وخيف اذا ارفــى طُروقًا بُعيرَه وعانٍ شَــوَى في القِدِّ حتى تكلّما
وارملــة تمشي بأشعــث مُحْثَلٍ كفرخ الحُبارَى رأسُه قد تضوَّعا (١٣)

ولا يرضى شاعر آخر بنحر الكسيرات المهزولات من الابل ، بل ان قومه ليفتبطون خيار الابل وكرائمها عند حلــول الضيفان :

ويجلب ضِرسُ الضيف فينا اذا شتا سديف السنام تستريه اصابعه (١٤)

واستهجنت زوج الهذلول بن كعب العنبري ، وقد راتــه زوجها يطحن الضيفان ، فقال قصيدة منها :

لعمــر ابيك الخير اني لخــادم لضيفي وانــي ان ركبــتُ لفارسُ
واني لأشري الحمد أبغي رُباحَه واترك قِرني وهو خزيانُ ناعسُ (١٥)

وكانت عادة العرب في الجدب اذا استعار احدهم قدرا ان يرد فيها شيئا من الطعام • وقد عبّر عن ذلك ، بالاضافة الى ايقاد النار في الليل ليهتدي الحائر اليها ، شاعرهم عوف بن الأحوص فقــال :

ومستنبحٍ يخشى القَــواء ودونه من الليل بابــا ظلمة وستورُها
رمقتُ له نارا فلما اهتدى بهــا زجرتُ كلابــي ان يُهِرّ عُقورُهــا
فلا تسألينــي وابتغي عن خليقتي اذا ردّ عافي القدر مَن يستعيرُها
وكانــوا قعودًا حولهــا يرقبونها وكانت فتــاةُ الحيّ ممــن يُنيرُها
يرى انّ خيــري لا تزال كأنهــا لذي الفروة المقــرور أُمٌّ يزورُها
مبرزة لا يجعــل الستر دونهــا اذا اخمد النيران لاح بشيرُها (١٦)

---

(١٣) المفضليــة (٦٧) .
(١٤) الشعر لجندر بن خالد ــ شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٥١٦ .
(١٥) المصدر السابق ٢/٧٠٠ .
(١٦) المفضلية رقم (٣٦) .

ويعتبر العربي بذل المال قرى للضيف واغاثة الملهوف ، وتحمل دية ، ونحو ذلك ، حقا لازبا لا مفر منه . ويفخر ربيعة بن مخروم الضبي بقومه الذين يفعلون ذلك ، فيقول :

اليسوا الذين اذا ازمة ألحّت على الناس تُغشي المُلِمّا

يُهينون في الحق اموالهم اذا الأزبات التُمِسْن الكريما [17]

ويفخر الحارث بن حلزة اليشكري بأن قومه يكرمون الضيف حينما يجدب المرعى ، ويشتدّ البرد ، فان لم يكن في إبلهم لبن عمدوا على القداح فضربوا بها للأضياف ، فنحروا لهم :

واذا اللقاح تروّحت بعشيّة رُتَكَ النعام ، الى مُغيف المُرْمِع

الفيْتنا للضيف خير عمارةٍ ان لم يكن لبن فمُسْلَكُ المَرْبَع [18]

وكثيرا ما يقترن السخاء والجود بحميد الخصال ، لان حب الخير يعين على البذل . والشواهد في الشعر الجاهلي اكثر من ان تحصى ؛ وثمة دليل آخر، وهو أن الحديث عن الجسود والسخاء يأتي متسلسلا الحديث عن الفخر ؛ وعناصر الفخر في العصر الجاهلي تكاد تكون محددة ومعروفة ، اللهم الا في بعض الحالات الشاذة ، كالفخر بتر بطون الحبالي . فالجاهلي يفخر بحسبه ونسبه ، ويفخر بالشجاعة ، وبنجدة الملهوف ، وبالكرم ، واغاثة الملهوف ، وبحماية الجار ، وكل تلك القيم التي حرص عليها المجتمع الجاهلي وصقلتها تلك البيئة حتى اصبحت اعرافا وتقاليد التزموا بها .

---

(١٧) المفضلية رقم (٣٨) .

(١٨) المفضلية رقم (٦٢) .

ويعتبر الجاهلي بذل المال ستراً ووقاية لعرضه حيث يقـول :

أُبَذِّلُ مالي دون عِرضي جُنَّةً ان خير المال مـا ادى الذمم (١٩)

ولا تنقص قلة المال من قيمة الرجل الكريم الحسب والخصال ؛ يقول الطفيل الغنوي :

انـي وان قَـلَّ مالي لا يفارقني مثل النعامة في اوصالها مِيلُ (٢٠)

ومن هذه القيم حرصهم على المراة ، وقـد كان شـديدا ، وتغنـوا بالحفاظ على الشرف والعرض ، ونشبت حروب كثـيرة بسبب محاولة اعتداء قوم على امراة من قبيلة اخرى ، بل بسبب اهانـة تلحق بامراة كما في بعض حروب الفجار . ولعل ذلك قد حملهم على اخذ نسائهم معهم في الحروب حتى لا تتخلف في الحي ، فيأتي قوم ويسبون النساء ، وذلك مما يجلب العار للقبيلة . لذلك افتخر شعراؤهم بحماية النساء ، يقول سلامة بن جندل التميمي :

بأنا منعنـا بالسُّيوفِ نساءَنـا ونحن قتلنا مَن أتانا يُمَلزِق (٢١)

ويفاخر عمرو بن حوط الرياحي بين قومه واخرين في يوم طخفة بقوله :

فمـا قوم كقومي حين يُخشَى على الخَسْف المُخَدّرة الفِضـاخُ

أَبَى مـن الحمائـظ فـي مَعَدٍّ اذا مـا جَدَّ بالقوم النِطاحُ (٢٢)

وقوم ربيعة بن مقروم الضبي يمنعون حريمهم :

طوال الرمـاح غداة الصبـاح ذوو نجدة يمنعون الحريمـا (٢٣)

---

(١٩) المفضلية (٧٨) والشعر للمثقب العبدي .

(٢٠) ديوان الطفيل الغنوي (٥٧) .

(٢١) ديوانـه (١٦) .

(٢٢) النقائض لابن عبيدة ٦٦/١ .

(٢٣) المفضلية رقم (٣٨) .

ويفخر الطفيل الغنوي بأنه يحافظ على خليلة جاره ولا يخونه :

ولا أخالـــف جاري في خليلته ولا ابن وُدِّيَ غالتني اذا غـــولا (٢٤)

وكان من عوامل الثبات والنصر في النهاية في يوم ذي قار ان بعض القادة اشار — حينما رأى قوة الفرس — على القوم بالانسحاب الى الصحراء ، المعقل الطبيعي ، ولكن زعيما آخر مال الى الابل التي تحمل حريمهم فقطع وضنها ، وقال : ليدافع كل منكم عن حريمه • وثبت القوم وانتصروا فـــي النهاية (٢٥) .

وقد شبهها بعضـــهم بالأُتُرُجَّة التي تتنوع بالرائحـــة الطيبة .

يحملن أُتُرُجَّةً نُضِّخُ العبـــيرَ بها كأن مَطيابها في الأنف مَزمُولُ (٢٦)

وبالرغم من حرص العربي على صون شرف المرأة الا ان ذلك لم يمنع من أخذهـــم على حين غرة ، فتسبى النساء ؛ وتسبى السبي عارا يلحق بالقبيلة ، ويفخر بـــه المنتصرون ، ويعيرون منهزميهم • وقول بشر بن أبي خازم الأسدي معرضا ببني عامر :

بني عامـــرٍ إنّا تركنـــا نساءكم من الثكل والارمال تُدمي شؤونها

عشاربطلنـــا مستبطنـــو البيض كالدمى مخرجـــة بالزعفران بيوتُها

تبيـــت النساء المرضعات برَوعة تنزع من ثاوي الدماء طلولُها (٢٧)

ويصور عوف بـــن عطية التميمي نساء بني تميم وهن يسبين عشيرته ، فيقـــول :

---

(٢٤) ديوانـــه (٥٨) .

(٢٥) انظر قصة يوم ذي قار في تاريخ الطبري ، الجزء الثاني ، الكامل ٢/٦١ .

(٢٦) المفضلية (١٢٠) لطفة بـــن عبدة .

(٢٧) المفضليـــة (٩٦) .

ولنعم فتيان الصباح اقيتم واذا النساء حواسر كالعنقر

من بين واضعة الخمار واختها تسعى ومنطقها مكان المئزر (٢٨)

تلك كانت منزلة المراة الحرة ، ولكن صنفا آخر من النساء لم يكن يحظين بهذه المنزلة ، واعني الاماء والقيان ، فقد كانت القينة وسيلة اللذة وقضاء الوقت ، وبخاصة في ليالي الشتاء وايامه • يقول طرفة معبرا عن ذلك :

ويقصر يوم الدجن — والدجن معجب —

ببهكنة تحت الطراف المعمّد (٢٩)

ويكرر المعنى نفسه عبد المسيح بن عسلة فيقول :

وسباع مجنسة تمالئنا حتى نؤوب تناوم العجم (٣٠)

ويكرر بشر بن عمرو المعنى فيقول :

وتبيت داجنة تجاوب مثلها خودا منعمة وتضرب معتبا

في اخرة جمعوا لسدى وسماحة هضم اذا أزم الشتاء تزعبا (٣١)

ولكن السبي وما يلحق من عار سببا مباشرا من اسباب وأد بعض العرب بناتهم ، ولم تكن هذه العادة السلبية غير الانسانية نادرة كما لم تكن عامة ، ولكنها وجدت • ومن الذين وادوا عددا من البنات بلغن تسعا في بعض الروايات قيس بن عاصم ، وقد حدث الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك . وجاء الاسلام ونزلت في المؤودة الآيتان

---

(٢٨) الفضلية (٦٤) .

(٢٩) مناقشة .

(٣٠) الفضلية (٧٢) .

(٣١) الفضلية (٧١) .

الكريمتان : « واذا المؤودة سُئلت ، بأي ذنب قُتلت » (٢٢) . ومع كل هذه المنزلة للمراة لم يمنع ذلك من وجود بعض التجار الذين يتاجرون ببقر بطون الحبالى ؛ فهذا عامر بن الطفيل يقول :

بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما غبطن بنيف الربع فهنا وقتمها (٢٣)

ومن القيم التي برزت في خضم تلك الحياة رخص الذل والهوان :

فكان العربي يسترخص الحياة في سبيل دفع المهانة والذل عن عشيرته الخسم ويقاتله قتالا انتحاريا ، وهو يعلم فوق كل شيء البديل الوحيد الذي يحاول أن يجعله يعيش فيه . يقول ربيعة بن مقروم الضبي :

ودار هوان أنفنا المقسام بها نطلنا مثلا كريما (٢٤)

ويقول عنترة في المعنى نفسه :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل (٢٥)

ويصرخ عمرو بن كلثوم قائلا :

اذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا (٢٦)

وفي يوم ذي قار يقول أبو لبلة :

ان الفوارس من عجل هم انفوا

من أن يخلوا لكسرى عرسة الدار (٢٧)

---

(٢٢) الآيتان (٨ ، ٩) من سورة التكوير .

(٢٣) ديوانه (١١٨) .

(٢٤) المفضلية رقم (٢٨) .

(٢٥) ديوانه (١٢٥) .

(٢٦) معلقته .

(٢٧) تاريخ الطبري ٢/٢١١ .

وتعارفت العرب كلها على **قانون الجوار** ، وكانت القبيلة تجد في حماية الجار مصدر فخر لها ، وان في منعته منعة لها ، وان اي اذى يلحق به يلحق بها ، ولو كان هذا الجار من غير عصبيتها . وتغنّى الشعراء بذلك كثيرا ، يقول عبيد بن الأبرص :

نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونلفّ بين ارامل الأيتام (٣٨)

ويقول حسان بن نشبة العدوي مادحا تيمًا لانها ابت ان تسلم جارها :

واني وإن لم أدرِ حيًّا سواهمُ فداءٌ لتيم يوم كلب وحميرا

ابوا أن يبيحوا جارهم لعدوّهم وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا (٣٩)

ويفخر المثقب العبدي باكرام الجار ورعاية حقه فيقول :

أُكرِمُ الجارَ وأَرعَى حقَّه ان عرفانَ الفتى الحقُّ كرم (٤٠)

ويقرن ذلك بعدم التعرض للناس في غيابهم ؛ وهو مماثل لما ورد في القرآن الكريم « ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه » (٤١) فيقول :

لا تراني راتعًا في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم

ويمدح عدي بن يزيد بن حمار بني شيبان بحمايتهم الجار ومساواته بابناء القبيلة حتى انه لينسى انه جار لهم ، فيقول :

ومن تكرّمهم في المحل انهمُ لا يعلم الجار فيهم انه الجارُ

من يكون عزيزًا من نفوسهمُ او ان يبينَ جميعا وهو مختارُ

---

(٣٨) ديوانه (١٣٠) .

(٣٩) شرح المفضليات للمرزوقي ٢/٦٢٧ .

(٤٠) الاغاني ٤/٧٧ وانظر شرح اختيارات المفضل (١٢٧١) .

(٤١) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

كأنه صَدَعٌ في رأس شاهقة من دونه لِعناق الطير أوكالُ (٤٢)

ولكن الجوار لم يكن محبوبا وايجابيا دائما ، فقد هاجر الحرث بن مسهر كلبا ايام حرب الفساد . فلم يحمدهم وتحسر على ايام قومه الخوالي ، وتعهد بأنهم لو رجعوا فان يخلعوا ابناء جلدتهم حتى الممات لئلا يضطرون الى الخروج :

فنعم الحيّ كلب غير أنّا رأينا في جوارهم هُضاما

ونعم الحي كلب غير أنّا رُزينا من بنيهنّ وبنات

فان الغدر قد امسى وامسى مقيما بين خَبْتٍ الى اللِّسام

تركنا قومنا من حرب عام الا يا قوم للأمر الشداد

واخرجنا الايامى من حصون بها دار الاثاثة والقِباب

فان نرجع الى الجبلين يوما نصالح قومنا حتى الممات (٤٣)

ويفخر حُرَيث بن جابر بتعصبه لحليفه وغزعه لظلمه فيقول :

اذا ظُلِمَ المولى غزعتُ لظلمه فحرّك اشفاري وسُرت كلابيا (٤٤)

وعير مساور بن هند قوما لنقضهم العهد ، وقطعهم الرحم فقال :

قتلوا ابن اختهم وجار بيوتهم من حينهم ومناهة الاثواب

غدرت جذيمة غير اني لم اكن ابدا لأولياء اول غدرة لولاكم

واذا صلحتم ذلكم لم تتركوا احدا يثب لكم على الاحساب (٤٥)

---

(٤٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠١/١ — ٢٠٢ .

(٤٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٥٦/١ — ٢٦٢ .

(٤٤) المصدر السابق ٢٧٦/١ .

(٤٥) المصدر السابق ٤٣١/١ — ٤٣٢ .

ويوصي العباس بن مرداس غيره بالحفاظ على الجار ، فيقول :

عليك بجار القوم عبد بن حبتر ... فلا ترشدن الا وجارك راشد

فان غضبت فيها حبيب بن حبتر ... فخذ خطة يرضاك فيها الاباعد

اذا طالت النجوى بغير اولى القوى ... اضاعت واضعت خد من هو وارد

فجارك فان مولاك حارد نصره ... ففي السيف مولى نصره لا يحارد(٤٦)

ويعرض جعدر بن خالد بغير قومه الذين يروّع جارهم ويغدر به ، فيقول :

ونحن الذين لا يروّع جارنا ... وبعضهم للغدر ضم مسامعه (٤٧)

ويعبر أبو تمام خصمه بأن جاره سهل المنال كالصيد لمن يطلبه بينما جاره لا يطلب ، ولا يطمع فيه :

فجارك عند بيتك لحم ظبي ... وجاري عند بيتي لا يرام (٤٨)

وكلما اصبحت حماية الجار والمحافظة عليه جبلة وقانونا يلتزمون به في الجاهلية ؛ يقول عوف بن عطية :

ولمنع جاري من المجحفات ... والجار ممتنع حيث صار (٤٩)

ومن القيم التي فخروا بها صون الامانة ، وعدم التفريط بها مهما كانت الاسباب والنتائج ؛ يقول الشنفرى مفضلا الوحوش على القوم الذين تركهم :

---

(٤٦) شرح الحماسة للمرزوقي ٤٣٧/١ — ٤٣٨ .

(٤٧) المصدر نفسه ٥١٤/٢ .

(٤٨) المصدر نفسه ٥٨١/٢ .

(٤٩) النصارة (١٢٤) .

هم الرهط لا مستودَعُ السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذَل (٥٠)

ولعل صورة يوم ذي قار تشهد بالسورة المشرفة لتسلّل القبيلة مسؤولية صون الأمانـــة ، ولو ادت النتيجة الى ملاقاة جيوش الفرس الجرارة . وقد اصبح هذا اليوم مدعاة لفخر شعرائهم وتغنّيهم بذلك ، بل لفخر العرب جميعا ؛ فقد اقسمت بكر الا تفرط بتلك الدروع التي اودعها النعمان عندهم ، وان انجم السماء اقرب الى احدهن من تلك الدروع ، يقول الأعشى شاعرهم :

نما حلقـــة النعمان يـــوم طابقها باقرب من نجم السماء تراقبه (٥١)

ويقسم في قصيدة اخرى بآلهة العرب ويخيرها بين الحفاظ على تلك الأدرع مهما غـــلا الثمن :

حلفـــت باللمح وبالرمـــاد وبالعُزّ ى وبالـــلات ثُمَّ الطاغيـــه

حتـــى يظـــل الهـــام منجـــدلا ويترع النيـــل طُرَّةَ الدَّرْنَـــقَه (٥٢)

ويخاطب راشد بن شهاب اليشكري قيس بن مسعود الشيباني بشأن تلك الأدرع مؤنبا فيقـــول :

وكنت زمانًا جـــارَ بيتٍ وصاحبًـــا

ولكـــنّ قيســـا في مـــالـــه [illegible]

اقيس بن مسعود بن قيس بن خالد

لموفٍ بادراع ابـــن ملبة ان [illegible]

بـــذمٍّ يَغشّي المـــرء خزيا ورهلَهُ

لدى الشَّرعة العُشّاء في ظلوة الأثْل (٥٣)

---

(٥٠) لامية العـــرب .
(٥١) ديوانـــه .
(٥٢) ديوانه والاغاني (دار الثقافة) ٢٢٦/٢٣ .
(٥٣) المفضلية (٨٦) .

وكان من مظاهر الصلات السليمة في العصر الجاهلي **الاحلاف** ؛ فكانوا يغمسون ايديهم في اثناء عقد احلافهم في طيب أو دم ، ويقولـون « الدم الدم ، والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلـوع الشمس الا شُدّا ، وطول الليالي الا مُـدّا ، مابلّ البحر صوفه ، واقام رضوى في مكانه » . وربما أوقـدوا النار عند تحالفهم ودعوا اللـه ان يحرم من ينقض عهد الحلف من منافعها . وربما دنوا من هـذه النار حتى تكاد تحرقهم ، كما حدث لقبائل من مرة بن عوف الذين تحالفوا عند نار ، فدنوا وعشوا بها حتى محشتهم فسموا به « المحاش » (٥٤) .

ومهما يكن من دوافع هذه الاحلاف ونتائجها فيجـب ان لا ننسى انها لعبت دورا كبيرا ايجابيا في تكويـن القبائل ، وجعلت القبائل الضعيفة تنضم الى القوية الكبيرة لتحميها ، وترد العدوان عنها (٥٥) .

ولا يغربن عن بالنا احلاف كانت غايتها دفـع الظلم والشر ، أو نشر الامن في ربوع الجزيرة . وخـير مثال لذلك حلف الفضول بيـن بطون قريش (٥٦) ، مسببه ان رؤساء بطون قريش اجتمعوا فاتفقوا الا يدعوا احدا يظالم احدا الا نصروا المظلوم علـى الظالم ، واخذوا له حقـه . وانتشر التحالف بين القبائل بصورة اوسع قبيـل الاسلام ، ولم تبق ناحية هـذه الاحلاف الا جمرات العرب (٥٧) ، ولعل انتشار المحالفات كان احساسا من القبيلة العربية بانها بحاجة الى الانفتاح على غيرها مـن القبائل ، وربما كان ذلك ارهاصا يبدو **نهضة قوية** افاد منها الاسلام في توحيد أمة استطاعت حمل رسالته الخالدة الى العالم .

---

(٥٤) الحيوان الجاحظ ٤/٤٧١ .

(٥٥) انظر معجم البكري ١/٥٣ وما بعدها .

(٥٦) المحبر ـ لابن حبيب (١٦٧) .

(٥٧) الحيوان ٥/١٢٣ ، الخبر (٢٣٤) .

وللحليف في المجتمع الجاهلي حقوق وعليه واجبات . ويفتخر العربي بأن حليفه لا يشام :

إنّـــا لمـــدرك لا يفـــــا م حليفنـــا ابـــدا لدينـــا (٥٨)

ولا يجوز نقض الحلف او الغدر بالحليف مـا دام الحلف قائما . وحرص المجتمع حينذاك على المحافظة علـى قداسة الحلف واعتبر الاخلال به عارا يلحق بالقوم ؛ بل لقد شبهه النابغة بالنسور عندما تمالك عرس نفلة الأسدي ، وكان بين اسد وذبيان حلف واراد عيينه بن حصن الفزاري مساعدة بني عبس ، فقـال محذرا :

اذا حاولتَ فـي أسَد فجـورا فاني لسـت منـا ولسـت منّـي

هو درعي التي استلأمتُ فيها الى يوم القتـار وسـهم كِنّي (٥٩)

ويفتخر الحـادرة بذلك فيقـول :

إنّا نعـفّ فلا نريـب حليفنـا ونكفّ شُحّ نفوسنا في المطمع (٦٠)

ومن القيـم الخالدة التي رسخت معالمها في نفسية العربي الجاهلي **رفضه الضيم** ولـو كان من اهله وذويه ، لان قبوله يتنافى مع قيم المروءة آمن بها المجتمع الجاهلي فرادى وقبائل . يقول الشنفرى :

ولولا اجتناب الذام لم يُلْفَ مشرب يعـاش بـه الا لـديّ ومأكـلُ

ولكنّ نفسًـا مُـرّةً لا تقيـم بي على الضيـم الا ريثمـا اتحولُ

---

(٥٨) ديوان عبيد بن الابرص (١٢٥) .

(٥٩) ديوانـه (١١٩) .

(٦٠) المفضلية رقـم (٨) .

وهو يرفض أن يشعره أحد بأن له فضلا عليه ، ويؤثر عليه أن يستقي تراب الأرض :

واستفُ ترْبَ الأرض كي لا يرى له عليّ من الطَّول امرؤٌ متطوّلُ (٦١)

والجاهلي يرى الأرض واسعة يتنقل فيها الانسان اذا احس بأن الذي لا ضيما سينالُه . يقول الشنفرى في بداية لاميته التي أعلن فيها تمرده وعلاقته بمجتمعه فلجأ الى الصحراء ووحوشها :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى مُتَعَزَّلُ

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء سرى راغبا او راهبا وهو يعقلُ (٦٢)

ويُعبّر عنترة العبسي عن الروح نفسها حين يقول :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ (٦٣)

وما الحروب التي تأججت نارها في الجزيرة العربية الا صورة طبيعية لرفض العربي الذل والضيم ، فقد كانت القبائل تحتكم الى سيوفها ورماحها لترد الظلم والضيم .

ومن القيم والمثل الايجابية التي عرفها العصر الجاهلي ذلك اللون من الشعر الذي عرف **بالمنصفات** ، وحاول فيه الشعراء الفرسان انصاف خصومهم ، او خصوم قبائلهم بالرغم من أنهم أعداء لهم . وقد عرفت الجزيرة هذا اللون منذ التقى الفرسان في ساحات الوغى . ويُعتبر المهلهل بن ربيعة اول من انصف في شعره حين قال في يوم عنيزة :

كلّيبٌ غُدوةً وبنو أبينا بجنب عنيزة رُكِبُوا مديرِ (٦٤)

---

(٦١) الميسة العصرية .

(٦٢) الميسة العصرية .

(٦٣) ديوانه ص (١٢٥) .

(٦٤) الاصمعية رقم (٥٣) .

وبدهي ان يرتبط هـذا اللون من الشعر بالمعارك والايام ، وان يصدر على السنـة الشعراء والفرسان ، وهم اولى العرب باحترام تقاليد الفروسية ، فهم أبوا طعن اعدائهم من الخلف وهم منهزمون ، ولم يعتادوا الغدر ، ولم يقتلوا مقاتلا الا ندّاً في الشجاعة . وان فارسا عرف تقاليده ليعز عليه ان يرى خصمه الفارس الشجاع مولياً الدبر سيفه على الرغم من انه هو الذي صرعه ؛ يعز عليه ذلك لسببين ، اولهما لانه فارس ويقدر الفارس الشجاع ؛ وثانيهما لانه يتخيل انه سيتقتل في يوم من الايام . وربما كان ذلك بسبب احساس الشاعر الجاهلي بمأساة مأساة الانسان،وهي الفناء الأبدي ، والتلاشي الى عدم ؛ فكأنما يرثي خصمه ونفسه ، وكأنما يبكي مصيره وحتمية ذلك المصير .

لقد التقى قيس بن زهير العبسي وحمل بن بدر الذبياني ، فقتل قيس حملا ؛ وما ان رآه صريعا حتى هاجت به الذكريات ، وتفجرت اشياء كثيرة منها صلات القربى ، وظلم القتيل ، فقال فيه :

تعلَّمْ أن خـير النـاس حيّـاً ... على جفـر الهباءة مـا يريـمُ

ولـولا ظلمـهُ مـا زلـت ابكي ... عليـه الدهر مـا ناح الحمـام

ولكنّ الفتـى حمـل بـن بـدر ... بغى،والبغـي مرتعه وخيـمُ (٦٥)

واضطر القتّال الكلابي لقتال فارس لم يكن يرتقب في ذلك النزال ؛ وتدور الدائرة على خصمه ، ويندم القتّال على قتله قتلا تعسفيا ، ويقول في قصيدة لـه :

ولمـا رأيتُ أننـي قـد قتلتـه ... ندمت عليـه اي ندامة نادم (٦٦)

---

(٦٥) الحماسة بشرح المرزوقي ٤٢٨/١ .

(٦٦) المصدر السابـق ٢٠١/١ .

ويتنزع الفارس المقدام اعجاب خصمه ومنازله ؛ فقد راى دريد بن الصمة ربيعة بن مكدم فارس كنانة وقد انكسر رمحه بعد ان صرع ثلاثة من اصحاب دريد الفرسان ؛ فقال دريد : ايها الفارس ان مثلك لا يقتل ، ولا ارى معك رمحا ، فدونك هذا الرمح . ورجع دريد يثبط اصحابه عن ربيعة بن مكدم . فانصرف القوم ونجا ربيعة . وانشد دريد معبرا عن اعجابه بذلك الفارس الخصم :

ما ان رايت ولا سمعت بمثله	حامي الظعينة فارسا لم يُقتَلِ
ارنى فوارس لم يكونوا نُهزَةً	ثم انصرف كانه لم يُفعلِ
مثل ان تبسم للسرة وجهه	مثل الحسام جُلِتْه كف الصَّيقَلِ
يرجى ظعينته ويسحب رمحه	متوجها يمناه نحو المنزلِ
وترى الفوارس من مخافة رمحه	مثل البغاث خشين وقع الأجدلِ
يا ليت شعري من ثبوه وامه ؟	يا صاح مُن يكُ مثله لم يُجهَلِ (٦٧)

ولكن الانصاف لم يقف عند حد انصاف فارس شاعر لفارس اخر مثله ، بل ان الشعراء انصفوا خصوم قبيلتهم . والأمثلة في الشعر الجاهلي كثيرة لا يتسع لها البحث ، وهي متنوعة بين قصائد ومقطوعات . لهذا سنقتصر الامر على بعض الامثلة .

غزا عباس بن مرداس السلمي وقومه بنو سليم مرادا ، ووقف عباس بن مرداس شاعرهم وفارسهم ينصف الاعداء ؛ وبلغ من محاولة الانصاف انه وزع ابيات القصيدة بين قومه وبين اعدائهم ، بل جعل بيت الشعر الواحد مناصفة بينهما ، وكان اذا خصص الشطر الأول من البيت لقومه ، جعل الشطر الثاني للأعداء ، وعكس الوضع في البيت التالي :

---

(٦٧) الاغاني (دار الكتب) ٦٦/١ .

فلم ارَ مثل الحيّ حيًّا مصبحا ... ولا مثلنا لما التقينا نوارسا

اكرّ واحمي للحقيقة منهم ... واضرب منا بالسيوف القوانسا

واحصننا منهم فما يبلغوننا ... نوارس منا مقعصون المنابسا

اذا ما شددنا شدّةً نصبوا لها ... صدور المذاكي والرماح الشوارسا[٦٨]

وثمة شاعر آخر هو المفضل النُكريّ ، من شعراء عبد القيس ، تحدّث لنا لقاء بين جيش قومه وجيش الاعداء ، فلنسمعهم ؛ وهذا هو يقف مع قومه مقابلة للفريقين فيقول :

هم صبروا فصبّرهم نليد ... طعن المعرّاة اذ يلمع اللمعُ

وهم دعسوا المنية فاستقلّت ... دراكا بعد ما كدمت كُدُمُ

تلاقينا بغيبة ذي طريف ... وبعضهم على بعض خفوقُ

فجاءوا عارضا بردا وجئنا ... كسيل العرض شاق به الطريقُ

مشينا شطرهم ومشوا الينا ... وقلنا : اليوم ما تُغني الحقوقُ

وكم من سيّد منّا ومنهم ... بسفح الطرفاء نطعنه ونُعنقُ

فاشبعنا السباع واشبعوها ... فراحت كأنها كلف عسوقُ

فأبكينا نساءهم وابكوا ... نساء ما يباع أمن يبوقُ[٦٩]

ويصل الانصاف ذروته حينما نرى الشاعر الباطني يتحدث عن خصومه الذين هزموه وهزموا قومه ؛ وهذا يمثل ذروة الانسانية والاخلاق والمروءة وبتفوق الخصم ؛ فقد سجل لنا البراء بن قيس النصر الذي احرزه قومه ، وانصف الاعداء بقوله :

---

(٦٨) الاصمعية رقم (٧٠) .

(٦٩) الاصمعية رقم (٦٦) .

فتأتنا تميم يوما جديدا قتلُ عاد وذاك يوم الكلاب

يوم جئنا بسوقنا الحيَّ سوقًا نحو قوم كانهم أُسْدُ غاب

وحشَدْنا الصميمَ نرجو نهابا فلقينا البُوار دون النهاب (٧٠)

ولا يضعف من قيمة هذه الأبيات الا خشيتنا من ان تكون العصبية القبلية قد دفعت بعض الرواة الى انتحالها .

ولبعض الجاهليين **موقف خاص من الخمر** ؛ فقد عددت المصادر القديمة لنا نفرا حرَّموا الخمر في الجاهلية على انفسهم ، ومنهم : عامر بن الظرب العدواني ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن امية ، وعفيف بن معد يكرب ، والعباس بن مرداس السلمي ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وعبيد بن الأبرص ، وابو ذر الغفاري ، وزهير بن ابي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والنابغة الجعدي ، وحاتم الطائي ، وغيرهم (٧١) .

ولم يكن تحريم هؤلاء الخمر محض صدفة ، او لان دينا او عقيدة امراهما بذلك ، ولكن ربما كان للتجربة سبب لذلك . يحدثنا صاحب الاغاني ان قيس بن عاصم المنقري سُكِر ذات ليلة قبل ان يُسلم ، فغمز كُنَّة ابنته ، وفي رواية اخرى اخته ، فهربت منه . فلما صحا من الخمر سئل عما صنع الليلة الماضية ، فلم يدر بماذا يخبرهم . فأخبروه بما فعل ، فحرَّم الخمر على نفسه ، وقال في ذلك شعرا يوضح ما تفعله الخمر بصاحبها ، حيث تذهب بعقله ، وتفضح شاربيها ، وتحيل الرجل الحليم سفيها :

---

(٧٠) الاغاني (دار الكتب) ٣٣٩/١٦ .

(٧١) المحبر – ابن حبيب (٢٣٧) ، امالي القالي ٢٠٤/١ ، نهاية الارب للنويري ٨٨/٤ .

وجدتُ الخمـر جامحـة وفيهـا خصـالٌ تفضح الرجل اللبيبا

فـلا واللـه اشربُهـا حياتـي ولا ادعـو لهـا ابـدا نصيبا

ولا اعطـي بها ثمنـا حياتـي ولا أشقـى بها ابدا غريبا

فان الخمـرَ تفضـح شاربيهـا وتتركهـم بها ابدا منيبا

اذا دارت حميّاهـا تملّـت علوالجُ تُتلفُ الرجل اللبيبا (٧٢)

ويضيف الاغاني في رواية اخرى ان قيس بن عاصم هو الذي حرمها على نفسه في الجاهلية ؛ وهو القائل فيها :

فوالله لا احسو يد الدهر خمـرة ولا شربةً تزري بذي اللب والنكر

فكيف أذوق الخمر والخمر لم تزل بسادتها حتى تُلمّ في الامر

وصارت به الأمثال تُضرَب بعدما يكون عميد القوم في البؤس والفقر

ثم يخاطب شارب الخمر محذرا وناصحا بتركها لان فيها ما لا يرضيه ما يضـره وما ينفعـه :

فيا شارب الصهباء دعها لاهلها الغـواة وسلـم للحليم من الامر

فانك لا تدري اذا مـا شربتَها واكثرتَ منها ما تُريبك وما تُزري (٧٣)

واذا كان قيس بن عاصم يطلب من شارب الصهباء ان يدعها لاهلها الغواة فانه يقر بأن فريقا آخر يشربها ؛ ولكنهم غواة . فهل حقا ان العرب في الجاهلية ينعتون شارب الخمر بالغاوي ؟ ذلك مـا لا تؤيده الشواهد الشعرية والاخبار التي بين ايدينا . ولكن تلـك الروايات تحدثنا ان الخمر لم يكن يشربها الا الموسرون ، وقد تحدثوا عـن مجالس الشرب والندامى .

---

(٧٢) الاغانـي (دار الكتب) ٨٤/١٤ .

(٧٣) المصدر نفسه ٨٥/١٤ .

ويشاطر عبد المسيح بن عسلة قيس بن عاصم بأن الخمر تذهب بالعقل فيقول :

والخمر ليست من اخيك ولكن قد تخون بآمن الحلم
وتبيّن السراي السفيه اذا جعلت رياح شمولها تنمي (٧٤)

والحكم والأمثال تمثل فلسفة الحياة الاولى ، ولها في تاريخ الفكر اهمية كبرى لا تدرك الا بالتعمق في دراسة نفسية الشعوب ، ودراسة التطور الفكري عند البشر . وحكم الجاهليين وامثالهم — كما ذهب بعض الباحثين (٧٥) — تشير الى ان الحياة جلاد وكرامة ، وان الحق فيها القوة ، وان زينة المرء شرفه . وبمعنى آخر فان الفلسفة الجاهلية فلسفة اخلاقية عملية ، بعيدة عن الميتافيزيقيات ؛ فلسفة مادية روحانية ، وروحانياتها مسحة اخلاقية كريمة .

وقد استوعب الحِكَمُ شكلا اللغة ، الشعر والنثر . يقول زهير في معلقته بعد ان تحدث عن عقد الصلح بين عبس وذبيان :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يُضَرَّسْ بأنياب ويوطأْ بمنسم

ويقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصبْ تُمِتْه ومَن تخطىء يعمَّر فيهرم

ويقول :

ومن لا يُذِدْ عن حوضه بسلاحه يُهَدَّم ومن لا يظلم الناس يُظْلَم

وكان **الموت** لغزا رهيبا لا يقوى الجاهلي على حله ، فجعله واقفا حائرا وهو يرى أحبته يتساقطون ، ولا يملك تفسيرا لذلك . فالموت

---

(٧٤) : الغنائية (٧٢) .

(٧٥) : [illegible] الشنقيطي — حنا فاخوري (١٧) .

فناء مطلق لا رجعة فيه ولا مفر منه . يرثي لبيد اخاه اربد وينظر الى الحياة ونهايتها فيقول :

فلا جزعٌ إن فَرَّق الدهر بيننا ... كل امرىء يوما به الدهر فاجعُ

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ... يحورُ رمادا بعد اذ هو ساطعُ

وما المال والاهلون الا ودائع ... ولا بد يوما ان تُرَدّ الودائعُ

وما الناس الا عاملان : فعامل ... يُتَبِّر ما يبني وآخر رائعُ

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ... ومنهم شقيٌّ بالمعيشة تالعُ

فلا تبعدنْ ان المنية موعد ... علينا غدانٍ للطلوع ولطالعُ (٧٦)

ويرى طرفة بن العبد الموت الوسيلة الوحيدة التي تساوي بين الناس فقيرهم وغنيهم فيقول :

ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صُمٌّ من صفيح منضّدُ

ارى الموت يَعتام الكرام ويصطفي ... عقيلةَ مال الفاحش المتشدّدُ (٧٧)

ويرى أن العيش كنز ولكنه ينقص كل ليلة ، وانه ان لا محالة . ولعل استعمال الشاعر لفظة « كنز » يشير الى اهمية الحياة بالنسبة للشاعر ، وللجاهلي بعامة ، وفي استعمالها ما يشرح ويفسر نزعته من الفناء ، كما أن تصويره بالاجل المرئي اشارة الى الحتمية التي لا انفكاك منها :

ارى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تُنقِص الايام والدهرُ يَنفدِ (٧٨)

لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المرخى وثُنياه باليدِ

متى ما يشأ يوما يُقِدْه لحتفه ... ومَن يسكُ في حبل المنيّة يَنقدِ

---

(٧٦) ديوانه (١٦٨ ــ ١٧١) .

(٧٧) ديوانه (٥٣) .

(٧٨) ديوانه (٥٣ ــ ٥٤) .

ويسخر امرؤ القيس من الناس ومن نفسه الذين يسيرون فلا يعرفون مصائرهم ، وانهم ضعفاء ، ومع ذلك فانهم اجرأ من مجلخة الذئاب :

ارانا موضعين لامر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

معللة وتبيان ودود واجرأ من مجلخة الذئاب (٧٩)

ومن الحكم الشهيرة :

اكثر من الصديق فانك على العدو قادر (قالها ابجر بن جابر المجاشعي) (٨٠) .

والدال على الخير كفاعله (قالها اللجيج بن شنيف اليربوعي) (٨١) .

واذا عز اخوك فهن ، (قالها الهذيل بن هبيرة) (٨٢) .

ومن **القيم الجاهلية البارزة في ذلك العصر ذلك التناقض الظاهر بين ظاهرتين ، اولاهما** نجد فيها الشاعر الجاهلي يحرض قومه وفرسانهم على مقتال الاعداء والفتك بهم ؛ وهذا ما ليس موضعه هذا البحث ، **وثانيهما** ، نجد فيها الشاعر الجاهلي **يدعو الى التسامح والسلم والصلح.** وهذه الظاهرة تبرز بوضوح حينما يكون الفريقان المتصارعان ينتميان الى قبيلة واحدة او الى بطن كبير من بطون عدنان او قحطان . وكأني بالشاعر ، وهو رائد في قومه وزعيم موجه لسياسة القبيلة ، يحس احساسا عميقا بصلة الرحم والقربى ، ويحرص عليها من ان تنقطع اوصالها . فهذا قيس بن زهير العبسي يقتل حمل بن بدر الفزاري ومع ذلك فهو يصرخ حزينا باكيا :

---

(٧٩) ديوان امرىء القيس .

(٨٠) الوسيط في الامثال للواحدي (٥٦) .

(٨١) المصدر السابق (٤٩) .

(٨٢) المصدر السابق (٤١) .

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني

فان اكُ قد بردت بهم غليلي فلم اقطع بهم الا بناني [٨٣]

وسنان بن ابي حارثة يخاطب المثلم بن رياح بن مثلم المُرّي محذرا ومتوعدا :

فَمَنْ مُبلِغٌ عني المثلّم آية

وسهلا فقد نَغّرتم السوءتين لومها

همو أخوتي دنيا فلا تقربنّهم

ابا حشرج وامسح لجنبك مذنبا [٨٤]

ويجيبه المثلم بن رياح ويرد على تهديده :

فَمَنْ مُبلِغ عني سنانا رسالة وشحنة أنّ قُومَا لُفّا الذي لُفّا

سأكفيك جنبي وضمّه ووساده واغضب ان لم تعط بالحق اغضبا

تميسح الرديني فينا وفيهم سياط بنات المساد لم يُرَ مُرّنا

لففنا البيوت بالبيوت فأصبحوا بني عمنا من مُرّنا مُرّ بينا بما [٨٥]

ويحاول الحصين بن الضمام المري اقناع بطن آخر من شيبانه حتى لا يكرهوه وقومه على ما لا يحبون :

فيا اخوينا من ابينا وأمّنا ذروا مولَيَيْنا عن عشاة مذنبا

فان أنتمُ لم تفعلوا لا ابالكم فلا تطلبونا بما قد جنينا

ونحن بنو سهم بن مُرّة لم نجد لنا نسبا عنهم ولا متأبا

---

(٨٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠٣/١ .

(٨٤) معجم الشعراء للمرزباني (٢٨٦) .

(٨٥) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٨٣/١ — ٢٨٤ .

متى تنتسبوا تلقوا ابانا ابالكم ولن تجدونا للفواحش اقربا (٨٦)

ويتحسر غلاق مروان على فرقة عبس وذبيان بسبب الرهان بين داحس والغبراء فيقول :

هم قطعوا الارحام بيني وبينهم واجروا اليها واستطوا المحارما

فيا ليتهم كانوا لاخرى مكانها ولم تلدي شيئا من القوم فاطما

شأمتم بها حيّي بغيض وغرّبت اباك فاودى حيث والى الاعاجما

وكانت بنو ذبيان مرا واخوة فطرتم وطاروا يضربون الجماجما(٨٧)

ويصور خالد بن نضلة ما بقي تارك قومه الى قوم آخرين وما سيلاقيه فيقول :

لعمري لرهط الدء خيرٌ بقيةً عليه وان عالوا به كل مركب

وما نائب الاقصى وان كان ذا غنى فكلٌ ما عُلِفْتَ من خبيث وطيّب (٨٨)

ويتسع نطاق الانتماء وتتضح عند شاعر من بني عبس فيميز بين مرعى الضرب الكبيرين : عدنان وقحطان فيرى القرابة من جهة الحارث بن كعب لانهم من نزار ، لا من جهة جرم وراسب لانهم من قضاعة من اليمنيين .

أبلغ الارحام عنا قريبة لحارٍ بن كعب لا لجرم وراسب

وانا نرى اقدامنا في فعالهم وآنفنا بين اللحى والحواجب

واخلاقنا اخلاقهم وبلاؤنا اذا ما ابينا لا نذرّ لعاصب (٨٩)

---

(٨٦) الفضلية (٦٠) .

(٨٧) شرح الحماسة المرزوقي ١/٤٥٥ .

(٨٨) المصدر السابق ١/٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٨٩) المصدر السابق ١/٣٢٨ — ٣٢٩ .

ويتضح هذا الانتماء بدرجة كبيرة حتى ان قومها يقاتلون قتلة الحارث بن وعلة الذهلي فيحار بين الأخذ بالثأر والصفح بسبب القرابة ، ويعبّر عن ذلك فيقول :

قومي هُمُ قتلوا أميمَ أخي ... فإذا رميتُ يصيبني سهمي

فلئن عفوتُ لأعفونّ جللا ... ولئن سطوتُ لأوهنّنْ عظمي

د. عفيف عبد الرحمن

---

(٩٠) شرح الحماسة للمرزوقي ١/٢٠٤ .

١ ـ الأصمعيات

تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ط ٢ : ١٩٦٤ .

٢ ـ الأغاني

طبعة دار الكتب ، وطبعة دار الثقافة بيروت .

٣ ـ الأمالي

القالي ـ ط بيروت ـ دار الحكمة ـ د . ت .

٤ ـ تاريخ الطبري

تحقيق محمد ابو الفضل ابرهيم ـ دار المعارف ١٩٦٨ .

٥ ـ جمهرة اللغة

لابن دريد ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة .

٦ ـ الحماسة

لابي تمام بشرح المرزوقي ، تحقيق عبد السلام هارون ورفيقه ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة ـ ط ٢ : ١٩٦٧ .

٧ ـ الحيوان

للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ : بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٩٦٩ .

٨ ـ ديوان الأعشى

تحقيق محمد محمد حسين ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٢ .

٩ ـــ **ديوان امرىء القيس**

تحقيق محمد ابو الفضل ابرهيم ـــ دار المعارف ط ٢ ، ١٩٦٤ .

١٠ـــ **ديوان طرفة بن العبد**

تحقيق علي الجندي ـــ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ .

١١ـــ **ديوان الطفيل الغنوي**

تحقيق محمد عبد القادر أحمد ـــ دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٨

١٢ـــ **ديوان عامر بن الطفيل**

دار صادر ـــ بيروت ١٩٦٣ .

١٣ـــ **ديوان عبيد بن الأبرص**

تحقيق حسين نصار ـــ مكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٧ .

١٤ـــ **ديوان عمرو بن شأس**

تحقيق يحيى الجبوري ـــ مطبعة الآداب ـــ النجف ١٩٧٦ .

١٥ـــ **ديوان عنترة**

تحقيق عبد المنعم شلبي ـــ المكتبة التجارية الكبرى ـــ مصر ـــ د . ت

١٦ـــ **ديوان النابغة الذبياني**

تحقيق شكري فيصل ـــ دار الفكر ـــ بيروت ـــ ١٩٦٨ .

١٧ـــ **ديوان لبيد بن ربيعة**

تحقيق احسان عباس ـــ وزارة الارشاد بالكويت ١٩٦٢ .

١٨ـــ **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب**

لأبي الفوز البغدادي ـــ المكتبة التجارية الكبرى ـــ مصر ـــ د . ت

١٩ـــ **شرح اختيارات المفضل للتبريزي**

تحقيق فخر الدين قباوة ـــ مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٦ .

٢٠ــ **شرح المعلقات السبع للزوزني**

دار الجيل بيروت ــ ط ٢ : ١٩٧٢ .

٢١ــ **شرح النقائض لأبي عبيدة**

مصورة بالأفست ــ مكتبة المثنى ــ بغداد ــ د. ت .

٢٢ــ **القرآن الكريم**

٢٣ــ **لامية العرب الشنفرى**

تحقيق محمد عبد البديع شريف ــ دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٤ .

٢٤ــ **المحبر لابن حبيب**

تحقيق ايلزا ليختن شتيتر ــ المكتب التجاري بيروت ــ د. ت .

٢٥ــ **معجم الشعراء للمرزباني**

تحقيق عبد الستار فراج ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، مصر ١٩٦٠

٢٦ــ **معجم مقاييس اللغة لابن فارس**

تحقيق عبد السلام هارون ــ ط ٢ مطبعة الحلبي ١٩٦٩ ــ ١٩٧٢

٢٧ــ **المفضليات**

تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ــ دار المعارف ١٩٦٤

٢٨ــ **نهاية الأرب للنويري**

الهيئة المصرية العامة ــ ١٩٦٤ .

٢٩ــ **النهاية في غريب الحديث لابن الأثير**

تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ــ بيروت ــ د. ت .

٣٠ــ **الوسيط في الأمثال للواحدي**

تحقيق عفيف عبد الرحمن ــ مؤسسة دار الكتب الثقافية ــ الكويت ١٩٧٥ .